



الراعي عبودة

جيكو محمد نور خورشيد - سورية

أهون عليه ممّا هو فيه من عذاب، هم لا يعرفون مدى تعلقه بشياهه، وأنها لديه أغلى من روحه.

مذ نعومة أظفاره كان راعياً، وهو الآن يضع قدمه على عتبة الثمانين من عمره ولم يتزوج أبداً، ما من أحد يعلم سرّ إحجائه عن الزواج، ظل طوال عمره المديد عاشقاً للأغنام والكباش والحملان، يكاد يكون الوحيد في القرية الذي بقي إلى الآن يهتم بالبهائم. ويمتلك قطيعاً من شياه.

كنا - أهل القرية - نراه دائماً يطلق أغنامه مع بزوغ الفجر، ويمسك بعنان أتائه الفبراء، يلازمها جحشها الأبيض الذي غدا أضخم منها. كم كان يتسلل إلى (حواكير) وكروم القرية مسبباً لصاحبه نزاعات، ويعرضه لشتائم وتهديدات من أهل القرية الذين كانوا يشفقون عليه من جهة لأنه

تناهى إليه صوت آخر مبجوح:
- هديّ من روعك... ماذا جرى؟
- تعالوا لتعرفوا مصيبتني، لقد ضاع تعب عمري كله!

وما هي إلا لحظات قليلة حتى تحلق حوله بعض الجيران، مستفسرين عما حدث له، ومحاولين تهدئته ومواساته، ثم طلبوا منه أن ينتظر حتى الصباح ليساعده في إيجاد قطع أغنامه المفقود، بعد أن أكدوا له خطورة وعدم جدوى البحث في تلك الليلة الحالكة.

تركوه في محنته، وعاد كل منهم إلى بيته وفراشه ليكمل نومه، أمّا هو فظل يراقب الغيوم المتراكضة في السماء كأنها أغنامه وهي تعدو من اللصوص والذئاب البشرية، كان متألماً يبكي وحيداً، يرتجف من هول المصيبة التي حلت به كالصاعقة، لو قتلوه كان

على نباح كلبته الجرباء، كمن لدغته عقرب قفز من فراشه مذعوراً في وهن الليل، أدرك بحدسه الذي لا يخيب أنّ مصيبة ما قد حدثت... بادر سريعاً صوب الزريبة ليتفقد أغنامه العزيزة على نفسه، أبصر بابها الخشبي العتيق مخلوعاً، دخل إليها وهو يتعوذ من اللعين ويبسل، فتح عينيه جيداً، لم ير شيئاً بسبب الظلام الشديد، فراح يبيده ورجليه يفتش عن أغنامه ويصيح كالغراب.

حين باءت محاولاته بالإخفاق، فقد صوابه، هرع إلى ساحة القرية صارخاً بأعلى صوته: يا ناس! يا عالم! هلموا إلي... كارثة حلت بي! شيق صوت قميص السكون متسائلاً:

- ما بك صارخاً معمولاً في مثل هذا الوقت؟

- آه... فقدت أعز ما أملك، لقد سُرقت أغنامي!



عجوزٌ وحيدٌ أمضى حياته الطويلة كلها في الشقاء والرعي بلا زواج! غير أنهم كانوا يغضبون عليه، ويستأثرون منه بسبب بخله الشديد، وبهائمه التي كانت أحياناً تقلت منه أو تتغافله، فتدخل إلى (حواكيرهم) ومزروعاتهم وتضر بها، بيد أنه لم يكن يأبه بوعيدهم وشتائمهم أو يصفي إلى نصائحهم.

كان عنيداً ذا رأس أقسى من الصوّان، معتداً بنفسه، معتبراً أنه أذكى وأعلم منهم بالأمر، وأشجع من في القرية، لذلك بقي كما هو عليه في طباعه وعاداته، وحتى لباسه.

دائماً كنا نراه يلبس قميصاً أزرق، وسروالاً أسود فضفاضاً، يضع على رأسه شالاً أبيض، ويمسك بيده عصاً طويلة يهش بها على أغنامه. كان فارغ القامة، متغصن الوجه، أسمر غامقاً، أشيب الشعر، غائر العينين، طويل الأنف، عاقد الحاجبين هزيلة، ولكنه بادي الحيوية، ولم تستطع السنوات الثمانون أن تحني ظهره.

كان يعدو خلف شياهه كياقع في العشرين من عمره، يسرح بأغنامه من الصباح الباكر حتى العشاء، لم يكن يصطحب معه زاداً أو ماء، يمشي على قدميه يشدّ عنان أتانه، لا يركب ظهرها، يخرج كل أيام السنة في الحرّ والقرّ، يبتهج للربيع حين يجيء ضاحكا بشقائق النعمان والأقحوان وسائر الأزهار والورود والأعشاب التي تكسو

السهول والهضاب، فتضفي عليها بهاءً أخذاً يسر عيون الناظرين.

مرت عليه لحظات أقسى من طلوع روحه، ولما أشرق الفجر غادر كوخه الشبيه بالكهوف، ومضى مع بعض رجال القرية المقربين منه إلى الغابات والمراعي، داروا طويلاً، وفتشوا كل الأماكن التي كان يرتادها، وأخيراً بعد أن أعياهم التعب والإرهاق عثروا على بعض أغنامه في (جبل رستم) تحت ظل صنوبرية وارقة، بينما كباشه الضخمة الثلاثة، وباقي أغنامه السمينّة ظلت مفقودة، وإذ ذاك جمد الراعي عبودة في مكانه مصعوقاً مذهولاً، وأخذ يجهش بالبكاء بالأطفال، يطلق أهات حري من صدره الواجب:

- أم.. الآن أيقنت أنني فقدت كباشي العزيزة، وأغنامي الحبيبة! التفت إليه جاره شكري وقال له مواسياً:

- اهدأ يا عم! سنعثّر على أغنامك في مكان آخر إن شاء الله.

وقال أبو رودي:

- إن كانت الأغنام المفقودة قد سُرقت فلا بد أن يكون دليل اللصوص من قريتنا.

عقب غودة مقهقها:

- لعنة الله على اللصوص، ما أكثرهم في أيامنا هذه! ألا تتذكرون كيف افتحموا بيتي في العام الماضي، وضربوني حتى أغمي عليّ، ثم سلبوا

نقودي وخاتمي الذهبي؟

توسل إليهم الراعي عبودة قائلاً:

- أرجوكم، دلّوني على ما أفعله!

أجابه غودة:

- هيّا! ماذا تنتظرون؟ اذهب إلى

المدينة، وقدم شكوى إلى المخفر؟

أسكته شكري:

ما هذا الكلام؟ لا داعي للذهاب

إلى المخفر، وهل ينقص العمّ عبودة

وجع رأسٍ آخر؟ وعلى من سيشتكى يا

تري؟

أيّد أبو رودي بقوله:

- حقاً يا عم! أنت لست بقادر على

تكاليف الشكوى! أنصحك بأن تعود

بأغنامك المتبقية إلى بيتك، وتقوِّض

أمرّك إلى الله!

رجع عبودة بما تبقى من أغنامه

والدموع تغسل خديه اليابستين، والألم

يعتصر قلبه الواهن! وبينما كانت

صور كباشه الثلاثة وأغنامه المسروقة

لا تفارق خياله، تتراءى أمام عينيه

الزائفتين الدامعتين، فهو لم يصدق ما

جرى له، وأخذ يذوب شيئاً فشيئاً حتى

تحول إلى جذع زيتونة محروق كالفحم!

رثته المراعي الجبلية، وغابات

الصنوبر والسنديان، والزعر والبلان،

والوديان السحيقة، إذ لم تعد تردّد

أصداً صياحه الذي كان ينبعث من

أوتار حنجرتة القوية من الصباح حتى

المساء لحناً دافئاً يشيع الأنس والحياة في

ربوع قرية «الكبيرة» الوادعة الحاملة! ■